الضريرات

بقلم الأستاذ محمد عبد الكريم

عطف كريم :

طالعت علينا الصحف بما أثلج الصدور وأحيا الآمال ، إذ رأينا الملكة الساهرة على أمتها تسارع إلى ضاحية الزيتون تجوب دور العميان وتتنقل بين ربوعهم ثم تقصد أعزها الله الى دار الضريرات بحى السيدة. فتغدق عليهن من برها وعطفها السامى مايشعر هؤلاء البائسات بابتسام الحياة فى وجودهن للمرة الأولى . فهذه المناسبة الكريمة نكتب عن هذه الدار ونزيلاتها .

فى دار الضريرات :

نحن فى شارع الشيخ البغال — شارع صغير يمتد على مسيرة دقائق معدودات من مسجد السيدة زينب تسير فيه حتى إذا بلغت منتصفه استرعت بصرك لوحة تطل من ناصية بيت متواضع تحمل اسم "دار مساعدة الضريرات" .

دخلت الدار حتى إذا انتهيت إلى سلمها استوقفتنى فتاة مبصرة ، سألتها عن الناظرة ، فابتسمت وأجابت فى تواضع وحياء انها هى ، وقادتنى الناظرة الصغيرة إلى مكتبها ، واستهلت ناظرة الدار ، الآنسة سارة محمد ، حديثها بالاعتذار عما أدى من بساطة المكان قائلة إن جماعة رعاية الضريرات ترعى الاقتصاد ما استطاعت ولا تعنى بالمظاهر ، قلت هذا خير مايرجى ، وما ضر مشروعاتنا الاصلاحية إلا الإغراق فى المظاهر ، و إنفاق المال فى غير ما أعد له — ثم قامت الناظرة تتنقل معى بين أرجاء الدار .

ومضينا إلى أماكن العمل فاذا بى بين عدد كبير من الفتيات ، كلهن ضريرات ، وقد انكببن على عملهن كل تعالج ما بيدها ، هذه تعد قاع سلة ، وتلك تقيم هيكلها ، وثالثة تكسو هذا الهيكل صفصافا . ووقفت فى جمع يقرب من الخمسين فتاة أشاهد وجوها ما كان أنضرها

لولا عيون ذهب القدر بإنسانها ، وأطبقت على العمى أجفانها . أتأمل تلك الأنامل الغضة التى تعمل وتنتج وتخرج صناعة مبصرة تبز عمل المبصرين — وسألت الآنسة سارة عن مدى نجاح البنات فى عملهن ، فقالت ان البنات يفدن ويستفدن ، فتلك السلة تكسب الفتاة خمسة وعشرين مليما ، وتستفيد الجماعة منها بخمسة مليمات تستعين بها على سد بعض النفقات .

وفى حجرة أخرى حضرنا درسا فى القرآن الكريم ، ولشد ما أثار اعجابى اتقان البنات للتجويد وحسن استعدادهن لادائه .

وانتقلت بنا الناظرة النشيطة إلى مساكن البنات ، فرأيت أسرة من الجريد ، كانت على بساطتها غاية فى النظافة ، وقد علقت المشاجب وميز كل مشجب منها بممر أو ممرين أو أكثر تستدل بها كل بنت على موضع مشجبها .

وإذ لاحظت وجود بعض الصور على جدران مساكن البنات ، عن لى أن أسأل "لمن تكون هذه الصور والبنات ضريرات" ؟ فأجابت الآنسة فى براعة وسرعة خاطر "للمبصرين — لى وللزائرين — أعددتها لذوى العيون لتذهب ببعض ما يخفه مشهد الضريرات فى نفوسهم من أسى وانقباض" .

وانتهينا بعد ذلك إلى مخزن المصنوعات . ولست بذاكر عنه شيئا سوى أن أسألك أيها القارئ الكريم أن تزور الدار لترى ما فيها ، ولست أشك فى أنك ستخرج منها محملا بالحقائب والسلال وغيرها من تلك المصنوعات النافعة التى تباع بأثمان ستغريك ولاريب على الشراء .

وعدت والناظرة الفاضلة إلى المكتب أتابع أسئلتى عن عمل الفتيات ، فقالت إنهن يقمن فوق عملهن السلال بحبك الخيوط واعداد بعض المفارش التى توردها الدار لمعهد التدبير المنزلى .

ولاحظت وجود بعض الآلات الموسيقية فى صوان بحجرة الناظرة ، فقلت لمن هذه ؟ قالت للبنات يتعلمن دق الطبل والغناء و بينهن فى هذا مجيدات ، وأضافت الآنسة سارة إلى ذلك أن لديها فتاتين تتعلمان الكتابة على الآلة الكاتبة بمعهد خاص . . . ولم أشأ أن أدع هذه الفرصة تمر دون أن أتبين بعينى هذا الأمر الغريب الذى لا نظير له إلا فى بريطانيا وفرنسا وإيطاليا ، حيث أعدت بعد الحرب الماضية معاهد فى سان دنستانز وريجنت بارك وباريس ونابولى لتعليم عميان الحرب هذا الفن المبصر .

وقصدت إلى معهد الآلات الكاتبة بعمارة دوس حيث شهدت عجبا ! . . ضريرتان صغيرتان تشتغلان بكتابة ما يملى عليهما . تضربان على أزرار الحروف بمهارة دون أن يعلو تلك الأزرار نتوء أو بروز . وقد علمت كما روت الصحف أن جلالة الملكة المعظمة أبدت إعجابها بعمل هاتين الفتاتين وشملتهما بعطفها السامى .

العمى فى مصر ، أسبابه وسبل كفاحه :

العمى — وقاك الله — شر ما يستعاذ منه . وقد قدر لأمتنا المسكينة أن تبتلى بهذا الشر . ابتلينا به اذ اجتمع لدينا رزء الفقر ومصيبة الجهل ، وقد ضاعف بلوانا أنا ألفنا التوانى فى الإصلاح ، والتراخى فى علاج أدوائنا .

أما الفقر : فلأن البلد الذى يحط فيه مستوى الكسب حتى ليهبط الى قرشين للفرد فى اليوم لا بد أن يحط معه المستوى الصحى — وأسرة الفلاح أو العامل التى تسعى جاهدة للحصول على القوت الضرورى من قفار الخبز أو تافه الإدام ، قل أن تجد هذه الأسرة من المال أو من الوقت متسعا لعناية بنظام مسكنها أو بنظافة أفرادها .

والفلاح ذو الجلباب الواحد — كما يصفه المسيو روزيتى صاحب المزرعة النموذجية بكفر الدوار — لا يتيسر له المحافظة على نظافة هذا الجلباب ، ومن العبث أن نقصر جهودنا على نشر الدعوة الصحية دون أن نقرن هذه الجهود بحلول حكيمة تخفف أثر الفقر فى البلاد .

حضرت مرة عرض شريط سينمائى مما يعرض على الفلاحين بالريف ، شريط عن صحة العين كان يتضمن الدعوة الى استعمال الصابون لنظافة العين ، والنوم على الفراش النظيف فرش يجب أن تستبدل ملاءته وأكياس وسائده كلما اتسخت بأخرى نظيفة ، وبأن يكون لكل فرد منشفة خاصة وبشكير و . . و . . الخ هذه الطلبات التى لا طاقة لن يقوى عليها الفلاح .

نحن لا ننكر فضل الدعوة الصحية ولكن لكى تحقق هذه الدعوة أغراضها يجب أن يعالج السبب الحقيقى لقدارة الشعب : الفقر الذى لا يدفع لا بتوفير أسباب الكسب للناس ، ولا سبيل الى هذه الغاية الا بزيادة الأراضى المستصلحة ، ونشر الصناعة ، واستغلال موارد البلاد الطبيعية ورفع الأجور .

وأما الجهل : فلا يزال يغشى السواد الأعظم من الشعب ، وحسبنا أن نعرض لبعض العادات التى ما فتئت شائعة بين الكثيرين لنرى كيف يعنى بعض الآباء والأمهات بعيون بنيهم .

دعنا من تذكرة داود ، فتعاليمها راقية بعض الرقى اذا قيست بأساليب الطب الشائعة عند العامة ، واذا كان فى الكحل وشم العطار وعقاقيره مما يؤذى البصر ، فمن العامة من لا يزال يستعمل لعميقة الحمراء أو الخرزة لإزالة التهاب العين ، أو يعمد الى الفلفل المسحوق لاستدرار الدمع وتقوية النظر ، بل إن بينهم من لا يزال يعمد الى ما هو أشنع من هذا وأبشع : الى روث الحمار أو بول الطفل أو الكلبة السوداء أو ماء مسقة الكلب ، يغسل بمثل هذه السموم عين طفله ليشفيها ، وإن شئت فقل ليعميها ...

ثم إن النظافة عند العامة مجابة للحسد ، وليس من الحكمة فى شرعة الجهل أن يظهر الطفل جميلا ، انما ينبغى أن يخفى هذا الجمال تحت قناع من الأقذار وأن تطمس العيون بالأوساخ ليعيش الطفل ويتقى شر العيون .

وأما تراخى المشرفين المسئولين وتوانيهم فى تنفيذ مناهج الإصلاح ، فحسبك فيه أن ترجع الى نواحى الإصلاح الحيوى وخاصة ما له مساس بصحة الأهلين ، عيونهم وأبدانهم لتلمس كثرة أقوالنا وقلة أعمالنا .

فلاحنا لا يزال يبيت مع دابته فى تلك المقابر الطينية .

وعاملنا لم يبرح يأوى إلى تلك الأكواخ فى الحوارى والدروب التى أظلمت بظلمتها العيون وضاقت بضيقها الصدور ، وبيوت الشعب لا زالت مظلمة كريهة الرائحة ، وحسبك أن تعلم أن ما وصل بالمجارى العامة من بيوت عاصمة البلاد ذاتها لا يتجاوز ستة وعشرين فى المائة .

ومشروعات حماية الصحة العامة كمشروع التحقق من سلامة الروجين من الأمراض الخبيثة كالزهرى والسيلان لا يزال كغيره رهن فحص وبحث وتنقيح وتعديل اللجان وغير اللجان .

على أن الوقاية ، وإن كان لها المكان الأول ، فإن للعلاج أثره وفعله فى تخفيف الداء إذا ما حل ، لذلك كانت رعاية العميان والعناية بهم من أولى الواجبات .

رعاية العميان واجبة :

إن رعاية الأعمى واجب تقضى به الانسانية وتحض عليه الشرائع السماوية كما يمرضه ناموس التكافل . واذا كان بين الفلاسفة كنيتشة من يحتج بسنة بقاء الأصلح ليصور للناس أن من خير المجتمع التخلص من ضعافه أو وجد هذا الرأى بين المذاهب الحديثة كالنازية من يدعو الى الأخذ به ، فليس ثمة من يدعو الى إهمال شأن الأعمى لأسباب ثلاثة :

الأول — أن العمى ليس وراثيا لذلك لا محل للخوف من ظهور جيل سقيم .

الثانى — أن الأعمى اذا أعين على تعلم الصناعة ، أمكنه الاعتماد على نفسه فى تحصيل قوته وقوت بنيه المبصرين .

الثالث — أن الأعمى ليس عاجزا ولا ذو بالقوة المعطلة ، وإن نظرة واحدة نلقيها على ماحولنا ، ندرك بها فضل العميان ونتبين منها أن المجتمع مدين لرءوسهم بكثير مما بلغه من تراث أدبى ومادى .

نقول ان العالم مدين لتلك الجفون المقفلة بثقافة مبصرة هى من خيرما أخرج للمبصرين، فهذا شعر أبي العلاء نحفظه ونرويه وتلك فلسفته يدرسها الغربيون قبل الشرقيين .

وشعر بشار بن برد حى يتلى ويوجه ويفيد .

وكتب فاوست فى الاقتصاد وموسيقى جون ستانلى (John Stanely)، ومؤلفات مون (Moan) ، وباخ (Bach) ، وبريل (Braille) ، وهاندل ، وتشارلس لوثر ، غيرهم يقرؤها ويحفظها ذوو العيون .

إن كنت ممن لا يؤمنون بكفاءة الأعمى فاعلم أن " دلفينو " العالم الكبير أعمى ومبتور الساقين والذراع ، وأن هيلين كلر (Helene Keller) التى تخرج للناس حتى الساعة كتبا من خير ما وضع فى الفلسفة : عمياء ، لا ياصاحبى إنها عمياء صماء أصابها الصمم بعد حمى ذهبت بحاسة السمع وأبقت لها طلاقة اللسان — تعلمت كلر بأصابعها التى تتحسس بها الحروف والتى تضعها أحيانا على خد محدثها فتفهم بالضغط كل ما يقال. نالت كلر دكتوراه الفلسفة وهى من يوم أن أتمت التحصيل ماكفة على العمل تكتب وتخطب . ضاقت بها دنيا الأمريكتين على سعتها ، فراحت تجوب المدائن والأمصار ، تطوف العالم لتسمع ذوى الآذان فى كل مكان إعجاز من رموا بالعجز ، وتبهر الملأ بنور من حرموا النور وعاشوا فى دياجير الظلام ، وهى فى كدها وسعيها تختص العميان بكل ما تصل إليه يداها .

كيف يرعون عميانهم :

إنى لأشفق عليك ياصاحبى ، وقد طال بنا بحث العمى ، أن أوذى عينيك بالاحصاء والأرقام . خذها حقيقة فى غير مغالاة إنى قد وقفت على ما أقنعنى بأن كافة شعوب العالم المتمدين تنفق مالا وفيرا فى سبيل العميان ، وأن مصر الزعيمة زعيمة العمى ، هى أقل الشعوب اهتماما بمكافحة العمى ورعاية العميان ، فهناك تعمل الأمم حكومات وأفرادا على تيسير سبل العيش للأعمى وتخفيف بلواه :

ذلك بأن الالزام بالتعلم يسرى فى كل أوروبا (عدا مملكتين) على العميان ، سريانه على المبصرين . ومصانع العميان ومدارسهم وملاجئهم لا تكاد تخلو منها مدينة أوروبية أو أمريكية مهما قل عدد العميان فيها . وهم يرعون ضعاف البصر رعايتهم للعميان ، فلا يتركون ضعيف البصر كما نفعل نحن يدرس بنفس الطريقة وفى ذات الفصول التى يتعلم بها السليم ،

ففى بريطانيا وأمريكا وألمانيا أعدت لهؤلاء فصول خاصة لأن إلزام الطالب الضعيف البصر بقراءة سبورة السليم والمطالعة فى كتبه كثيرا ما تذهب بالبقية الباقية من نور عينيه وخاصة عند وجود العاهة البصرية المطردة الزيادة .

ورعاية الأعمى هناك من أولى واجبات الزائرة الصحية التى يجب أن توافى ادارات الاصلاح بحالة كل أعمى لسد ماينتقصه .

ومن الممالك من يقتصر بعض المهن على العميان وحدهم تيسيرا لعيشهم كاليابان التى حصرت مهنة التدليك فيهم ، وكأمريكا التى فرضت على المعامل اسناد بعض الأعمال للعميان ، وإنك لترى بمصانع فورد عميانا وعجزة كثيرين .

ومنها من تنتزع العميان من صدور المهملين من الآباء والأمهات لتعنى بهم الدولة ، وقد عنيت بريطانيا كثيرا بهذا وأعدت للصغار من العميان دور الحضانة وللكبار مايطلقون عليه (Sun shine home for the blind) .

وقد ابتكر فى بوستن بأمريكا نظام " العصا البيضاء " التى تعطى لكل أعمى ، فاذا أراد عبور شارع رفعها ايراه الشرطى فيسارع الى معونته حتى يتقى خطر العجلات والسيارات .

وأعجب من هذا مدارس الكلاب التى تدرب فيها الكلاب على قيادة العميان وإرشادهم فى سيرهم .

ثم رعاية العمال المشتغلين فى الأعمال الضارة بالبصر أو التى تشع نورا يبهر إذ يلزم أصحاب الأعمال بالتأمين على عيون عمالهم وبتوزيع نظارات خاصة للمشتغلين فى الضوء الشديد ، وقد عنى أحد المهندسين المصريين " الأستاذ محمود ابراهيم ، مدير ورش التليفونات " بالنظام الأخير إذ شاهدته بين عماله .

يا أصحاب النظر

هذا داء العمى يغشى بلادكم ويفتك بأبصار مواطنيكم ، وتلكم قضية العميان المؤثرة تقدمها اليكم لتساعدوا العميان ما استطعتم ، واتكافحوا ، يامن بيدكم الحل والعقد ، بلاء العمى ماقدرتم ، وإن لكم فى مليك البلاد ومليكتها أسوة تقتدى ، ومثلا فى البر والرحمة يحتذى .

محمد عبد الكريم